المحاولة الأخيرة ...

قصة بقلم محيي الدين شعيب

امتلأ الطبق باعقاب السجاير ، وصوفي تدندن باغنية حب ، وذبابة ترابية تمسح الحجرة برتابة قاتلة ، وعندما قام ليطاردها اختفت خلف الستارة . وغمغم في حقد : ـ لماذا خلق الله الذباب ؟

منذ ثلاث ساعات والورقة مبسوطة امامه وليس بها سوى كلمتين في اعلى الورقة « جنة آمون » وكلما حاول ان يكتب حرفا سرح بخياله بعيدا ، وانقضت الذبابة في تحد صارخ على حافة فنجان القهوة فابعدها بعنف ، فانسكبت بقايا القهوة على الورقة البيضاء فكورها في عصبية والقى بها في سلة المهملات .

لقد بدأت الحكاية ببساطة كان يمكن ان تمر دون ان يلحظها هو نفسه غير ان امرا ما ، خارج نطاق ادراكه جعله يؤمن بكل كلمة قيلت ، بل انه عمل من جانبه على توريط نفسه ، كان يجلس مع بعض الاصدقاء، والجو جميل بداية صيف ، والجلسة شاعرية على ضفة النيل وصديق شاعر يهمس باغنية حب للقمر الاخضر وبشائر الفيضان تحول ماء النهر الى نبيذ ، وعوامة في الضفة المقابلة تشرخ جمال الليل بانوارها الباهرة. وعلق احدهم في حكمة « النور الباهر مرادف للجنس » كان يعاني ازمة جنسية بالغة التعقيد ، ومع ذلك كان يصرح دائما في وقار سمج « انه حل تماما مشكلة الجنس بالقراءة العميقة » ويدور حديث طويل تتخلله ضحكات وابواق سيارات وصرير جنادب واعواد ثقاب تشتعل واعقاب سجاير تلقى وتحملها مياه النهر ، وتخرج من احد الاصدقاء عبارة ربما كان لا يعنيها .. انطلقت عفوا لتعبر عن اعجاب وقتي ولكنها هزت سلوك جودت هزا عنيفا : « طريقتك في الحديث رائعة . انك تصلح لان تكون كاتب قصة ممتاز . »

وابتسم جودت في هدوء صخري « لقد اخفيت عليكم .. انني اكتب القصة فعلا » .

وبعد ان افلتت الجملة من لسانه حدث صمت ، مل الاصوات اشد وضوحا واكثر جلبة وذهنه انقى صفاء .. وضحك احدهم في محبة « اكشف عن نفسك يا رجل » واحس بنبض في صدغيه اخذ يشتد وينتشر حتى غطى عينيه ورأسه . وتمتم شخص باسلوب غير ودي ، استفزازي ، « انت غامض » وتنفس بصعوبة واشتد نبض صدغيه . لقد تورط كذبابة في طبق عسل .

وفي اخر الليل كان عليه ان يكتب قصة .. لقد اصبحت القضية قضية كرامة . كان مغتاظا من نفسه حتى انه ود لو بصق على وجهه « طفيلي » وعصر رأسه الملتهب يستخرج كل المخزون بها من الذكريات واستغرب كيف ان عشرين عاما طويلة ليس فيها ما يصلح ان يكون موضوع قصة ؟

ووبخ نفسه في حقد : « .. تافه » لقد وعدهم ان يحضر القصة في الصباح ليحكموا عليها ، لا بد ان يكتب .. ولا بد ان ينام .وتسربت الى الحجرة رائحة سمك يقلى رغم ان الساعة في طريقها الى منتصف الليل وهمس لنفسه « اود ان استحم » وثقب بلادة الليل صراخ مخيف من رطل لحم بشري امه تلقب بالعروسة رغم انها وضعت شوشو منذ اربعة اشهر (لا احد يعرف نوع شوشو) ، وتذكر قصة ولدين صغيرين سرقا كلبة صغيرة عمياء وخبآها في بيت مهجور وظلا شهرين كاملين يطعمانها ويحنوان عليها ، كان احدهما امها والاخر ابوها . وذات يوم اكتشفا ان الكلبة غير موجودة واتهم كل منهما الاخر انه سرقها .

واستقبلت المجموعة في الصباح قصة « الكلبة » بحماس مبالغ فيه وسأل احدهم « ألم تكتب غيرها » فابتسم بخبث : انها « الاخيرة ».. وصرخ احدهم .. « الفكرة جيدة انما الاساس خاطىء نتيجة تقوقع النظرية وارجو ان تسمح لي ان اكون موضوعيا فأشير الى ان رواسبك الطبقية هي التي تغذي انفعالاتك الشخصية » .

بدأ الاصدقاء يلحون ، فقد انحصر تفكيرهم في كونه قاصا ، وعليه ان يسير في الطريق الذي وضع نفسه فيه حتى النهاية احتفاظا بكرامته وعندما يضيقون عليه الخناق يتنهد « الموضوع في ذهني مختمر تماما » ويضيف باسى « القضية قضية وقت » وكأي مسيح معذب يسبل جفنيه « تصور » ويقدم تقريرا مفصلا عن الاربع والعشرين ساعة ويغمزه احدهم « انت عبقري كسول » .

وتزوج جودت فجأة .. وعلق احد الاصدقاء ..

ـ انها لا تصلح لجودت ، ستقضي عليه حتما ، اراهن بعمري انها ستحيله الى اشلاء فنان خلال عام واحد .

واضاف في اسى : ـ انها انثى ..

وقلت لقاءات مجموعة الاصدقاء واصبحت زياراتهم قصيرة وجافة وروتينية . وكرر جودت ألف مرة « البيت بابه مفتوح في اي وقت ولا داعي لهذا السلوك البرجوازي » وفي كل مرة كانت الاجابة لا تتغير «انت تعرف الطريق الى قهوة الس » . ولكن الطريق الى القهوة طويل والمواصلات صعبة كما انه لم يعد يقرأ جيدا ولم يكتب حرفا والاسترخاء امام التلفزيون متعة حقيقية ، وسألت صوفي بلهجة محايدة « لديك عمل » وتثاءب في لذة « اريد ان اقرأ قليلا » وفكرت في تعاسة :«سيصبح دمه ثقيلا ، ولن يضحك مع احد، كيف يطيق هذه الكتب ؟ ثم انني قتلت صرصارا امس كان يحوم حولها » واقتربت منه ووضعت كلتا يديها في جيبي منامته .. « تعال الى حجرة الضيوف ، ولن اضايقك ؟ » جلس على كرسي في احدى زوايا الحجرة ومد ساقه على منضدة صغيرة ورص بجانبه كومة من الكتب . واستلقت صوفي على السرير في مواجهته تماما . وخطفت نصاعة غطاء السرير بصر جودت وكأنها غسلت بالثلج وهو يحب اللون الياقوتي والاصفر الشاحب وزهر المشمش ، وصوفي تقرأ مجلة نسائية وتهتف بين حين واخر « ياه » والسرير يئن في رخاوة وهي تتقلب عليه ، وساد البيت هدوء في لون الياسمين ويبدو ان صوفي قد نامت . واشعل سيجارة بتلذذ نهم ، وكأنها اخر سيجارة في الدنيا ، وراح يقلب صفحات الكتاب ، كان ورقه مصقولا في زرقة سماوية شفافة جديرة بديوان شعر .

ـ جودت ..

« اذن فهي لم تنم » ، ورفع عينيه عن الصفحات الزرقاء وهو ينظر بطريقة زوجية الى تطاريز سروالها وقد انزاح قميص نومها فكشف عن فخذين كقشدة مخفوقة جيدا في عصير الفراولة .

ـ نعم ..

ـ اريد المتر ..

ـ متر !!

ـ ارجوك، في الدرج بجوار السرير ..

تناولت المتر وهي تقف فوق السرير وكأنما تذكرت فجأة « سوسن ستحضر الليلة » . وشعر بجفاف في حنجرته فاشعل سيجارة «سيرتفع

الستار الليلة عن نفس المسرحية ويلعب الممثلون ادوارهم المعادة . سوسن فتاة نصف ساذجة ، بارعة في انشغال الابرة تستعمل الفاظا فصيحة في لحظات انفعالها . وزوجها طفل كبير يميل الى السمنة ، يكن احتفارا شديدا للطبقة العاملة وباستطاعته ان يشرب خمسة اكواب كبيرة من الشاي دفعة واحدة . وشقيق صوفي شاربه يميل قليلا الى الاصفرار ، عدواني يعرف كل شيء ويرغب في معرفة كل شيء وعيونه زرقاء وزوجته مدهشة ، تذهب الى دورة المياه كل نصف ساعة ، لا تتكلم الا في النادر وتوجه الحديث اليه فقط، ومع ذلك فهي ضرورية تماما لاستكمال جو المسرحية .

وصرخت صوفي في انزعاج : ـ كنت احس بذلك ! لقد زاد خصري سنتي ونصف ، فلت لك يا جودت انا لا اريد اكل النشويات وانت تصر على الارز بطريقه عجيبة .

كان الكتاب في يده ، وحجر ثقيل على صدره ، وهموم الدنيا تملأ رئتيه ، فتكتم انفاسه ، وفكر في حدة « لا بد ان اصل الى حل جذري لهذه المشكلة . اما ان اكتب واما ان اكف تماما عن الكتابة ، وعلي ان اخوض التجربة بكل شجاعة واتحمل نتائجها مهما كانت ..

وناداته صوفي فلم يجبها « هذه الحياة الزوجية اعترف انها طبيعية ولكنها غير فنية ، انا محتاج الى تجربة جديدة ، دوامة ، اريد ان احب حبا عنيفا يخلع قلبي . اريد ان اكتب .. اريد ان اكتب .سميحة زميلتي في العمل لا بد انها تحبني ، معاملتها لي تختلف عن معاملتها للاخرين ، ليست هذه تصورات ، انها حقيقة واضحة غير اني اعمى .

ـ سميحة ، الملف ١٠٧ هـ من فضلك ..

ـ لم انته منه بعد ..

وحملقت في وجهه باتساع عينيها الحلوتين ، وشعرها الاسود الطويل يكون مع عنقها وصدرها نغمة موسيقية حنونة ، وانفرجت شفتاها في آهة قصيرة خافتة « انني مرهقة ، تصور انني لم انم امس سوى ثلاث ساعات » .

كانت الحجرة الواسعة البيضاء تضمهما فقط وثلاث نوافذ واسعة مفتوحة عن اخرها وسميحة تشرب قدح نسون وجودت يدخن سيجارة وينظر اليها بحنان وشوق ، وابتسمت له وتحولت الابتسامة الى ضحكة صغيرة كفيمة وابتسم في عينيها الواسعتين الحلوتين .

وتناولت مشطا من العاج الابيض وغرزته في ظلام شعرها :

ـ سميحة ..

ـ نعـــم ..

وعصرته « نعم » هذه فالتهبت اذناه .

ـ شعرك جميل ..

ـ شكرا ..

وضحكا في صفاء . وشد نفسا طويلا من سيجارته وهو لا يزال ينظر اليها في رخاوة « سأسمي الفصة الحب بعد الاوان ، لا ، الثلج يذوب .. اكثر عمقا » .

ـ جودت ، سيجارة من فضلك .

وتلامست ايديهما وهو يشعل لها السيجارة فانتفض وشعرايضا بانتفاضة خفيفة حول زاويتي فمها . لم يكتشف انها جميلة تسيل العذوبة من عينيها الا هذا الصباح فقط .

ـ في الاسبوع الماضي قالت صديقة لو ان المرأة تستطيع ان تتزوج رجلين لكان ذلك شيئا رائعا ..

ـ فكرة مدهشة ..

ـ بالنسبة لي .. امنية

ـ ومن الاخر ؟

ســر !!

ـ انني اعرفه ..

ـ اعطيك قرشا لو عرفته ..

ـ انه رخيص جدا ..

ـ انه اغلى من عمري ..

ـ تراهني على اني اعرفه؟

ـ اراهن .. بماذا ؟

ـ تخرجين معي يوم السبت ..

ـ يوم السبت ؟!

ـ عطلة..

ـ حقا !

وضحكت ضحكة خجلة ..

ـ انت مكار ..

ـ سانتظرك التاسعة صباحا في ميدان التحرير ..

ـ التاسعة والنصف ..

وامتلأت الحجرة الواسعة البيضاء بالحب وغادرت سميحة المكتب وهي تتهادى وكعب حذائها ينقر على خشب الحجرة نقرات عصفورية . عذبة . عذبة ..

وفكر جودت غير مصدق .. (كيف قبلت ان تخرج معي بهذه البساطة ؟ ألم افل انها تحبني . منذ اكثر من اربعة اشهر ونظراتها الي غريبة ومشحونة بالحنان ، ما اعذب الحنان ! ولكن . اسمع . انت لم تأت عملا خاطئا . امرأة تحبك وتريد ان تخرج معك . تقضيان معا ساعة حلوة بعيدة عن هموم العالم . جريمة . سوف نكون في مكان عام، وحولنا الف عين . ثم انني فنان والفنان لا يحركه الا الحب العذب العنيف السخي ، بلا اغراض ، لاهدف لها الا الحب ولا هدف لي الا الفن . سوف تؤدي لي سميحة خدمة كبيرة ، تضغط بقلبها على قلبي فتفجر فيه ينابيع الفن ، لنعترف ان صوفي فشلت في ذلك ، انها زوجة رائعة .. اما سميحة فهي شيء اخر . انها الدم الذي اطعم به شرايييني) .

وقرب الاهرام وجدا مقهى صغيرا واستقبلهما صاحبه اليوناني بلامبالاة وهو يرد على تحية جود ت.. لم يكن بالمقهى غيرهما ، وجلسا في ركن منزو من الشرفة الواسعة وجاء اليوناني العجوز بالقهوة ووضعها على المائدة وهو ينظر الى شعر سميحة .

وابتسم له جودت وهو يقدم له سيجارة (لماذا اغلقت الحديقة ؟) وهز الرجل العجوز رأسه في اسى ومرارة : « لان احدا منكم لم يعد يأتي الى هنا .. افتحها لمن . لي ؟ » . وغلف الهدوء الشرفة ، ورائحة النعناع تملأ المكان بشذى مسكر وسميحة حلوة كعروسة . عيناها باسمتان وشعرها الاسود الطويل يحتضن عنقها في مودة . ودق قلب جودت كحمامة صغيرة على رقبتها سكين والمائدة منزوية تحت خيمة من اللبلاب وامسك يدها ، صغيرة . بيضاء . دافئة . خاف ان تذوب في يده فقبلها ..

ـ جودت ..

وغمس عينيه في عينيها ..

ـ لم انم امس . ظللت ساهرة حتى الثالثة . كنت خائفة ان لا تحضر ..

ـ سميحة . احبك ..

ـ بقلبك .. تقولها ..

وتلاقت شفاههما في قبلة طويلة..وسكن كل شيء من حولهما الا رائحة النعناع .

ـ لم يعد في حياتي سواك . احيانا انسى نفسي واخلط بينك وبين زوجي عندما انام معه .

ـ دعيني انظر في عينيك ، انا لا اشبع منهما ..

كان صوت صوفي عذبا ، عميقا يملأ البيت واشعل اخر سيجارة في علبته .

« اذا لم اكتب الان ، فلن اكتب ابدا ، ساطلق الكتابة » ..

كان ذهنه املس كالرخام النقي ، مغسولا جيدا ، وقلبه مسدودا بصمام من الفولاذ . وارسلت الذبابة طنينا حادا من مكان ما ،واشتد صفاء صوت صوفي وتحولت السيجارة الى رماد ، ورسم جودت في الورقة البيضاء مركبا صغيرا ، مقدمته رفيعة ويخفق عليها علم كبير ..

القاهرة

بهي الدين شعيب